الأختلاف والأئتلاف عبر اللغة السردية

رواية المحبوبات أنموذجاً

محمد قاسم لعيبي
بغداد

ودع كل صوت غير صوتي فانني
انا الصاح المحكي والآخر الصدى

تعتمد العملية الابداعية التي يمثلها العمل الروائي على مرونة السرد الذي تجسد عبر الكتابة واصبح النص السردي يمثل الائتلاف والاختلاف للانا وللآخر.
هذا الاختلاف والائتلاف يجسد لذة السرد بفعل التوتر الذي تتواصل عبره الشحنة العاطفية الكفيلة بتحقيق حالات الاجتذاب الفني وبث اللذة الجمالية عبر مسار ثري محتشد بالتنوع في فضاء المناخات والطبائع الفردية صعودا وهبوطا، ايجابا وسلبا، توترا واستواء. من هنا تنتج الدلالة المختلفة باختراق الاصوات والشخصيات عبر انشطارات مختلفة والنمط السردي للرواية يبدأ من ادق الانشطارات الذاتية في علاقة الذات بالذات، حتى يصل الى الآخر المغاير فالشخص يمكن ان يكون اخر حتى بالنسبة الى ذاته. فكل راوية تسرد اخرها بشكل مميز من الناحية الفنية والفكرية والاشكالية التي نحن بصدد دراستها كيف يلتقي الانا بالاخر؟ وكيف نظرت الرواية الى هذا الآخر؟ وماذا يمثل الآخر بالنسبة للانا؟ واي اسس بني عليها مبدأ الاختلاف والائتلاف؟ والا يعد الاختلاف ضرورة وثراء في العملية السردية؟

من هنا تاخذ الرواية مكانتها السردية وتجسد الحداثة العربية من هذا الانشطار المركز الذي يتحول الى كتابة عن الذات، واذا نظرنا الى الرواية وبحثنا عن مضختها الحرارية وشحنتها الفنية الغنية بالدلالات والرموز نجدها في هذا الامر الذي تقترب وتبتعد بحسب تنوع المحافل السردية التي تخرج الرواية عن ذلك الفضاء التقليدي الذي يتسم بالثبات والمراوحة، فالاختلاف هو الذي يجرد الرواية على مستوى التفكير والتخييل واللغة وفي اساليب التعبير وتنوعها وتجاذبها وتلاقحها احيانا، اذ فرض على الكاتب ان يملك حريته الواعية في اتباع النصوص ويخرج عن النظرة الاحادية الضيقة في ظل وجود الآخر والمختلف فالآخر موجود بفعل الطبقة والمجتمع وهو اساس الحياة، ولبها ونواتها، ومحور نمائها وتطورها وخصوصيتها لكون الآخر هو الطرف الثاني الذي ترى صورتك من خلاله وتدرك ذاتك ووجودك ووظيفتك.
فالآخر هو مصدر تعدد انساق الرواية واشكالها ونبعها الفياض الذي يمدها بالتجربة وعنصر الحداثة ويجدد نسيجها ويجعلها مؤسسة قائمة على احداث متعددة وهذا التنوع يخدم بدوره العملية الفنية ويصل الى تلك المناطق الخفية المظلمة عبر التنوع في الفنون الروائية التي تخرج من النمطية والثبات لتتحول الى كائنات تضخ الدم حارا في شخصياتها وتتبع ادق التفاصيل.
ومن هنا تتحقق للنص الروائي شعريته وحرارته وحيويته في تنوع سردي يجمع بين الفكر والفن والرؤية والجمال وهذا ما تطمح اليه الرواية الحديثة والمعاصرة فالانا والاخر هو صلب اللغة ونواتها واللغة حدث لساني تواصلي مع الطرف الاخر الى جانب كونها عملية فكرية تستوعب في حدثها اللساني الالفاظ والمعاني والجمل والصورة لتصبغ النص بقعا انسيابية تطمر هنا لتختفي هناك هذا هو العمل الابداعي الذي يستهوي المتلقي في الرواية ويغريه ويجعله يشعر بتلك اللذة الفنية المتماهية مع الدلالات والرموز والمعاني كعلامات نصية متنوعة بتنوع الشخوص والاحداث فاللغة هي اساس الاخر (لان مجرد استعمال اللغة او الكلمات يفترض حضور الاخر سواء تقدم هذا الاخر في اتجاه الحوار او الصراع (المحبوبات)
والتفاعل مع نظرة الاخر لا يمس الشخصيات فحسب بل تتفاعل النصوص والافكار وتتاثر ببعضها بعضا فحتى الجديد يعد اخر بالنسبة للقديم (فانه كلما انضاف عنصر الى هذا الحقل او مسه من قريب او بعيد فان الذات او السياق العام الذي تنتمي اليه ينفعل بالضرورة بهذا العنصر او يتفاعل معه بحسب منطق الصراع والاختلاف الذي يميز حقل الهوية) (محمد نور الدين افايه ñ الهوية والاختلاف) فالاختلاف يثري العملية السردية ويخرجها من الشحوب اللغوي والضمور الحسي الى الثراء والتنوع والخصوبة والوفرة في اقتناص مادتها الحكائية وتشغيلها بناء ولغة ورؤية انطلاقا من وعي الذات بالاخر المختلف تنفتح تلك الآفق الجديدة التي تثري العملية الابداعية حتى لا تتجاوز رؤية الذات والموضوع الى رؤية الاخر المختلف.
ان الاخر المغاير يساعد في اعادة النظر في القيم والمناهج والمعايير والاحكام وهذا بدوره يمثل عنصرا ايجابيا من عملية ادراك الذات ومعرفتها ويعطي الاخر دفعا قويا للبحث عن الذات.
فالانا والاخر سواء في الملتقى ام المفترق تمثل طاقة دفع قوية للعملية السردية التي تبقى قائمة على تلك المساءلة بين الانا والاخر وهذا ما كانت عليه رواية عالية ممدوح (المحبوبات) التي تدور احداثها عن الاغتراب والمنفى واللاجئين العراقيين في الخارج وهم يعانون بين نار المنفى بثقافته وتقاليده المختلفتين ونار الحنين الى الوطن بذكرياته الحزينة، اذ تقدم لنا الرواية مجموعة من الصديقات (المحبوبات) في المنفى على اختلاف مرجعياتهن (الثقافية والعقائدية او القومية والاثنية). وهي محاولة لتجاوز المسكوت عنه اذ تتعمد الرواية تقديم هذه الشخصيات بشكل لافت للنظر عبر احاطتها بمجموعة من الصفات والمميزات التي تجعل منها استثنائية في جميع الاحوال (انظر المحبوبات ص22) اذ تقدم الرواية هذا الجمع النسوي الاستثنائي تحت مظلة علاقات متينة تجمع بين الشرق والغرب (تيساهايدن، كارولين، بلانش، نرجس، وجد، اسماء، فضلا على سهيلة).
واذا كان المختلف يتمثل في ارض فرنسا التي جمعت كل هذه الثقافات فانها الان في الملاذ الآمن لـ(سهيلة) على الرغم من شعورها بالغربة بعيدا عن الوطن تقول بهذا الصدد (لا افهم ما يدور من حولي، لا، لا، ليس للامر علاقة باللغة).
لا تقدر اللغة وحدها على اصلاح ما حولك، اللغة وسيلة من الوسائل كانني بلا ذاكرة بلا آباء، بلا اسلاف وبلا تاريخ كانني لم احي من قبل اعني هل غادرت نفسي الاولى الى الابد وسوف لن التقي بها ثانية؟) (الرواية 130 – 131) غير اننا سرعان ما نشعر بان الهوة بين الانا والاخر اصبحت تضيق و(سهيلة) تلك الشخصية التي تدور حولها احداث الرواية سرعان ما تحاول ان تتجاوز هذه الغربة مستعينة بشبكة علاقات نسوية فالهوة بين الانا والاخر ضاقت وصفة الشرق والغرب لم تعد عدوانية انا اصبحت اكثر التصاقا خاصة توافر وسائل الاتصال السريعة وفضاء العولمة الذي خلق حوارا والحوار هنا لا يعني المجادلة او المناظرة بقدر ما يعني فهم الاخر، هذا التفاهم حقق شراكة فعلية وان كانت في بدايتها اقتصادية تجارية فانها بالضرورة ثقافية حضارية وعليه اصبحت د. سهيلة جزءا من هذا المجتمع النسوي العالمي الامر الذي تتحدث عنه الرواية عبر جلسة مثالية تتلو فيها احدى الشخصيات شيئا من القرآن واخرى من التوراة وثالثة من الانجيل سعيا منها لخلق فضاء مشترك (الاصوات تتحدث وتتداخل بلغات عدة موسيقى، دفوف، ونايات، وتراتيل الان الا حظ ثلاث ديانات تجمعنا ولغات عدة واقوام ودول بنات حاتم يعزفن، وهو يغني وانت ترتلين الكتاب واسماء تقرأ آيات من القرآن الكريم، وتيسا، لا ادري، هل ستوافق على القراءة من التوراة؟)/ الرواية 195/.
تلك هي الهوة المطلقة التي كسرت القيود وجعلت الدول اقرب الى الدولة الواحدة وهذا ما يعرف بالعولمة التي حطمت نوعا ما سلطة الانا ودفعت الى تقبل الاخر على اساس القاعدة التي تعتمد على الشراكة والحوار، الامر الذي يعني خلق المناخ الملائم للتفاهم والتعاون الذي يساعد الجميع على توليد توجهات ايجابية اكثر وبذلك يصبح الحوار الاداة المشتركة التي تمكننا من تحقيق فهم اعمق للذات وللاخر الشريك والمشترك معنا في الحوار (صدى الحداثة ص133) هذا التفاعل الذي نلمسه بين الشعوب والدول فرضته وسائل الاتصال السريعة كشبكة الانترنت وسواها من وسائل الاتصال وخلق تفاعلا في الثقافة واللغة التي تقبلت الاخر من مختلف ومغاير وهذا بدوره يسهم في اثراء العملية الابداعية وتنوعها لكون (تحقيق حوار حقيقي بين الحضارات يقتضي اولا تاسيس لغة تستوعب المختلف ولا ترفضه او تنبذه) هذه التحولات اثرت بدورها على الرواية التي تشعبت وتنوعت في حمولتها الثقافية والمعرفية والفكرية وخرجت عن المعايير الكلاسيكية الثابتة لتقتحم عالم المسكوت عنه هذا الحضور المكثف للرواية في متنها الثقافي المتنوع والمعاصر بفتح الطاقة لتلك اللغة التعبيرية المركزة في بنائها ومنطقها اذا لمست بواطن الاشياء وضربت الصميم ووصلت الى النواة او الجوهر وهذا ما يعرفه النقاد بـ(البنية العميقة للنص).

ملف

سيرة ذاتية لمبدعة مهاجرة

– عالية ممدوح قاصة وروائية واعلامية.
– مواليد بغداد الاعظمية عام 1949.
– تعيش في المنافي منذ عام 1982 وتقيم في فرنسا حاليا.
– عملت في الصحافة ورأست تحرير صحيفة الراصد وعملت محررة في مجلة الفكر المعاصر.
– تكتب مقالات ثقافية في جريدة (الرياض) السعودية.
– صدر لها:
– افتتاحية للضحك (مجموعة قصص) بيروت 1973.
– هوامش للسيدة ب (مجموعة قصص) بيروت 1977.
– ليلى والذئب (رواية) بغداد 1981.
– الولع (رواية) 1995 بيروت.
– الغلامة (رواية) 2000 بيروت
– حبات النفتالين (رواية) 2000 القاهرة
– المحبوبات (رواية) 2003 فازت بجائزة نجيب محفوظ عام 2004.
– التشهي (رواية) بيروت 2007.
– ترجمت روايات المحبوبات وحبات النفتالين الى العديد من اللغات.

عالية ومحبوباتها المخذولات بالإستبداد

عمل إبداعي يحصد جائزة نجيب محفوظ باستحقاق

د. فاطمة بدر
بغداد

نشرت الكاتبة العراقية المغتربة عالية ممدوح روايتها المحبوبات عن دار الساقي بلندن في العام 2003 . وحازت على جائزة نجيب محفوظ في العام 2004 .
وأوضحت أن هذه الجائزة النفيسة منحت لجنس الكتابة والإبداع، وليس لجنس المؤلفة، للكاتبات العراقيات المخذولات بالاستبداد سابقا، وبالاحتلال، والتعصب والتطرف لاحقا، هي لجيل عراقي كان عدد شهدائه، ومشرديه وجائعيه أكثر من الذين يجلسون وراء المكاتب الانيقة، جيل منكسر كان انكساره أعظم من الذين تسببوا بانكساره.
بطلة الرواية (سهيلة)خريجة الفنون الجميلة، والراقصة السابقة في فرقة الرقص الشعبي، متزوجة من ضابط في الجيش العراقي، وهو ضابط مقدام وشجاع متخرج في كلية الاركان، أختفى في الحرب، لها ولد واحد (نادر راوي الرواية)عانت سهيلة عدم التفاهم مع زوجها الضابط ـ ـ
كان يضربها ضربا مبرحا ويهينها وصلت ساديته إلى حد الرفس، وتصويب المسدس لثوان نحوها ليستمتع بخوفها وذعرها وهي تلوذ بالفرار، هذا المشهد كان يثير لديه اللذة، والنشوة بالانتصار عليها. هذا الالم يجعلها في حالة انطواء، وانحباس اذ ليس لديها رد فعل تجاهه لذا تلجأ إلى النوم تقول الضرب يمنحني رخصة النوم من شدة التعب، يخدرني، و تزداد حالتها سوءا، في بعض الاحايين ويحصل لها اغماء، وهي تتهاوى بين يديه لذا يشعر بالخوف، فيحاول طلب الاسعاف لها، ولكنها من شدة حبها له تخشى عليه من المساءلة القانونية فترفض الذهاب إلى المستشفى ، ومعاناة أخرى تعاني منها هي الحرب وويلاتها، اذ تصاب بالجلطة الدماغية في اليوم الأول لقصف بغداد في حرب الخليج الأولى، فتفقد الوعي وتظل في غيبوبة تتجمع محبوباتها حول سريرها ـ وهن خليط من جنسيات، وقوميات عدة فسارة، وبلانس، واسماء من العراق وتيسا هايدن اليهودية، ود. وجد المصرية، ونرجس اللبنانية، وأحمد ونور من سوريا والسودان.
تعاني سهيلة الغربة والضياع والرعب، والاغتراب النفسي، لذا تنضم إلى فرقة الرقص الشعبي في باريس للتنفيس عن نفسها، ونوع من أنواع التطهر؛ لأن الرقص له هدف مزدوج فهو وسيلة للتعبير عن الانفعالات، وهو وسيلة للتخلص من هذه الانفعالات، أرادت أن تخفف من الامها، وتتخلص من انفعالاتها مثلماتخلص زوربامن انفعالاته بالرقص، عندما سمع نبأ وفاة أبنه في رواية(زوربا) لنيكوس كازانتزاكي قال (لو لم أرقص لجننت)، ومثلما فعلت لمى زوجة د.فالح في رواية (السفينة) لجبرا ابراهيم جبرا حينما رقصت أمام الجميع باندفاع شديد، ولم تعبأ بزوجها، واصدقائه، ولم تبال لأنها أرادت أن تتطهر، وتتخلص من انفعالاتها، في رواية المحبوبات تردد سهيلة كما يقول أبنها نادر (على مسمعنا ومسمع تيسا أن الرقص لغتها وتواضعها، وهو الذي يجعل من الفن نقطة مشتركة بين الجميع، جميع البشر.كانت تنهي بعض الامسيات بطريقة مرحة، وعفوية.لذا أمنت بأن الرقص يزيد مناعتها تجاه القهر الذي كانت تعانيه،ويقوي الاختيار مابين الحياة والفناء ولذلك ادمنت عليه))78.
وربما كانت الغيبوبة هي الأخرى نوع من أنواع التطهر، والتخلص من الانفعالات والمعاناة، ونوع من أنواع الهروب في الوقت نفسه.
هذه هي الأسباب الحقيقية التي دفعت سهيلة إلى هذه الحالة (مابين الحياة والموت) فهي تخشى معرفة ما حل ببلدها . فمعاناة سهيلة على الصعيد الشخصي والعام، هو خشيتها على اهلها واقربائها واعزتها من الموت لذا كانت تتمنى أن ترزق ببنت كي لاتاخذها منها الحرب لقد وفقت الكاتبة في هذا الربط (تنام سهيلة عندما يضربها زوجها، وتغيب عن الوعي عندما ضربت بغداد) في كلا الحالتين هي وسيلة للهروب.
أما ابنها نادر(الراوي) المغترب فهو استاذ جامعي ـ مهندس كمبيوتر. هاجر إلى كندا يعيش مع أبنه ليون وزوجته البريطانية ذات الاصول الهندية .
يعاني نادر هو الاخر الضياع والاغتراب، والاحساس بالغربة والانقطاع عن الجذور هو شخصية متذبذة ربما نتيجة علاقته بامه الفاترة مع هذا فهي الرابط الوحيد الذي يربطه بهذا العالم، حضر إلى باريس بعد تلقي ايميلا من صديقة امه كارولين ـ ينقل لنا أكثر أحداث الرواية ـ يتأقلم مع مجتمعه بعد أن يحصل على الجنسيتين البريطانية والكندية، يريد محو اصله العراقي ولكن أينما يحل يسألونه عن اصله ـ صلك مسيو عراقي هه،
من جهة أخرى يجمع صورا لبغداد عن ماضيها وحاضرها؛ ليرسلها إلى خاله ضياء في أفريقيا، ويتحدث مع ولده ليون عن بغداد فكان يتهجأ له اسم بغداد بكل اللغات، يذكره مشهد الماء المتدفق في حديقة المستشفى بصوت الماء الخابط الذي كان يسمعه في حديقة بيته في بغدادهذا البيت الذي كان لايحبه نتيجة سطوة ابيه وقسوته. ومن جهة أخرى يشعر نادر بالغربة، والتشيوء،وضياع الذات؛ لأنه يعيش في مجتمع ليبرالي يتجه نحو السوق تظل القيمة فيه مرتبطة بوجود التنافس مما يخلق بطلا اشكاليا مأزوما تتلاشى فيه الشخصية، وتتحول إلى سلعة يقول مخاطبا امه : (تصوري ياامي أننا في الشركة نملك سلطة التسويق، وبيع كل شيء بدءا من السلع ومرورا بالافكار وانتهاء بالاشخاص، يمكنك القول أننا نبيع الاوهام ونتبادلها) 249 .
فكان احساسه بنفسه بالمنفى في كنده مجرد سلعة في مجتمع تسيطر عليه الاوتوقراطية يضل الانسان فيها ويتيه؛ لأن التطور في هذه المجتمعات لايقوم على اسس متوازية مما يحول الحياة الانسانية إلى حياة وحشية ضارية ينعدم فيها الهدوء والاستقرار.
ويقول لامه انه مجرد سلعة يمكن أن تباع أو تشترى في هذه البلاد (تصوري، هويتي هنا هو انتمائي المهني فحسب، انني سلعة أيضا ياأمي التسليع يطال جميع ما يخطر في بالك.) 250
تتحدث الرواية عن علاقة سهيلة بصديقاتها، عالم حافل بالحب والمودة، والألفة؛ لأن هذه الصداقات وما فيها من حب وتعلق كفيلة باعادة سهيلة إلى الحياة، وحقاً تستعيد وعيها في نهاية الرواية. هذه الصدقات هي نوع من التعاضد والتضامن للتخلص من الغربة والوحدة، هي حوافز خارجية تدعم سهيلة .
كما أن الرواية على الهواجس الداخلية وعلى علاقاتها بصديقاتها.